إيبارشيَّة لوس أنجلوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
لقاء على الهواء في قناة لوغوس
سبتمبر وأكتوبر ٢٠١٤م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

الإيمان بالمسيح حياتِنا كلِّنا، هو غاية رسالة الكنيسة

أمثال ٨:٣٢-٣٦ / رومية ٥:١٧-٢١ / فيلبي ١:٢١ / يوحنَّا ٥:٣٩، ٤٠ ؛ ٦:٤٠ / ١يوحنا ١:١-٤ ؛ ٥:٩-١٣

تقديم

يقول القدِّيس إغناطيوس الشَّهيد (٣٥-١٠٧م):
[بدون (المسيح) ليست لنا حياةٌ حقيقيَّة] (ترالليان ٩).

[فلنكن فقط موجودين في المسيح يسوع لننال منه الحياةَ الحقيقيَّة، وخارجاً عنه لا تَدَعوا شيئاً يجذب انتباهكم] (الرسالة إلى أفسس: ١١).

[(ليكن لنا من) نحو المسيح، الإيمان والمحبَّة بدرجة كاملة، اللَّذان هما بدء الحياة ومنتهاها. **فالبدء هو الإيمان، والمنتهى هي المحبَّة، وباتحادهما معًا يكونُ اللهُ حاضرًا، وبقيَّة الأمور الخاصة بالحياة الفاضلة، تتبع ذلك**. ليس أحدٌ وهو يشهد للإيمان، يُخطئ. وليس أحد وهو يقتني المحبة، يُبغض ...] (أفسس ١٤).

ويقول العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م):
[**البشرية كلُّها تحتاج إلى يسوع** ... وما أعظم المنفعة التي يسبغها علينا كمحبٍّ للبشر، حتى آثر أن يجعل نفسه أخاً للبشر بدلاً من أن يكون لهم سيِّداً، بل وتمادى في إحسانه حتى مات لأجلنا] (المربِّي ١:٩).

ويقول القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):
[**ليتنا لا نمسك فقط بالمسيح بل لنلتصق به**، لأننا إن افترقنا عنه فإننا نهلك ... وهو يوحِّدنا به بأمثلة كثيرة. فانظر: إنه هو الرأس ونحن الجسد. فهل يمكن أن توجد أيةُ فجوة بين الرأس والجسد؟ إنه هو الأساس ونحن البناء. هو الكرمة ونحن الأغصان. هو العريس ونحن العروس. هو الرَّاعي ونحن الخراف. هو الطَّريق ونحن السَّائرون فيه. نحن الهيكل وهو السَّاكن فينا. هو البكر ونحن إخوته. هو الوارث ونحن شركاؤه في الميراث. **هو الحياة ونحن الأحياء**. هو القيامة ونحن القائمون. هو النُّور ونحن المستنيرون. كلُّ هذه تفيد الاتحاد، ولا تترك فرصة لوجود أقل فجوة بيننا وبينه] (العظة الثَّامنة في تفسير ١كو ٣: ١١).

ويقول القدِّيس أنبا مقار الكبير:
[داوم ذكر الاسم القدُّوس، اسم ربِّنا يسوع المسيح، فهذه هي الجوهرةُ، التي من أجلِها باع التَّاجرُ الحكيمُ كلَّ أهويةِ قلبِهِ واشتراها، وأخذها إلى داخلِ بيتِهِ، فوجدها أحلى من العسلِ والشَّهدِ في فمِهِ. فطوبى لذلك الإنسان الذي يحفظُ هذه الجوهرةَ في قلبِهِ، فإنها تعطيه مكافأةً عظيمةً في مجدِ ربِّنا يسوع المسيح] (قول ٥٨).

والآن، أحصر كلامي في البنود التَّالية:
أوَّلاً: الإيمان بالمسيح موهبة معطاة من الله.
ثانياً: الإيمان بالمسيح وارتباطه بالتَّقوى التي كمالُها المحبَّة.
ثالثاً: رسالة الكنيسة هي تكميل رسالة المسيح.

أوَّلاً: الإيمان بالمسيح موهبة معطاة لنا من الله

• يوجز القدِّيس بولس الرَّسول موضوعَ الإيمان بالمسيح في عبارة واحدة، هي كلِّ الإيمان وغايتِه، فيقول: «مع المسيح صُلبت، فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، **إيمانِ ابنِ الله الذي أحبَّني وأسلم نفسه لأجلي**» (غلاطية ٢:٢٠).

الإيمان بمحبَّة المسيح التي دفعته أن يموت من أجل الكنيسة. ولكن كيف أمكن للقدِّيس بولس أن يُدرك هذا السِّرّ؟

يقول القدِّيس بولس الرَّسول: «إن كنتم قد سمعتم بتدبير نعمةِ الله المعطاة لي لأجلكم، أنه **بإعلان عرَّفني بالسِّر**. كما سبقتُ فكتبتُ بالإيجاز، الذي بحسبه حينما تقرأونه، تقدرون أن **تفهموا درايتي بسرِّ المسيح**» (أفسس ٣:٢-٤).

ويقول أيضاً: «... ذاكراً إيَّاكم في صلواتي، **كي يعطيكم** إلهُ ربِّنا يسوعَ المسيح أبو المجد، **روحَ الحكمة والإعلانِ في معرفته**، مستنيرةً عيونُ أذهانكم τῆς καρδίας ὑμῶν (أي قلوبكم)، لتعلموا ما هو رجاءُ دعوته (أي: لتعلموا ما في دعوته من رجاء)، وما هو غنى مجدِ ميراثه في القدِّيسين (أي: الذي جعله للقدِّيسين)، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا (أي: المُعلنة لنا) نحن المؤمنين، حسب عمل شدَّة قوَّته الذي عمله في المسيح ... الخ» (أفسس ١:١٦-٢٠).

ويقول أيضاً: « **ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصِّلون ومتأسِّسون في المحبَّة، حتى تستطيعوا أن تُدركوا** ...» (أفسس ٣:١٤-١٩).

• إذاً، فمعرفة الله ومعرفة أسراره، وما استودعه في الكنيسة من أسرار، توهَب لنا بروح الله. «لأنَّ أمورَ الله لا يعرفُها أحدٌ إلاَّ روحُ الله. ونحن لم نأخذ روحَ العالم، بل الرُّوحَ الذي من الله، لنعرفَ الأشياءَ الموهوبة لنا من الله، التي نتكلَّم بها أيضاً، لا بأقوال تُعلِّمُها حكمةٌ إنسانيَّة، **بل بما يُعلِّمُه الرُّوح القُدُس** ... لأنه من عَرَفَ فكرَ الرَّب فيُعلِّمَه، وأمَّا نحن فلنا فكرُ المسيح» (١كورنثوس ٢:١١- ١٦).

ويقول بولس الرَّسول: «قد **وُهب لكم** لأجل المسيح، لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضاً أن تتألَّموا لأجله» (فيلبي ١:٢٩).

• إذاً، فإيماننا بالمسيح، هو موهبة معطاة لنا من الله الآب نفسه. فتقول المراسيم الرَّسوليَّة (٨:١:٩، ١٠): ''ليس أحدٌ من النَّاس آمن بالله بالمسيح، و لم ينل موهبة روحانيَّة[1] لأنَّ الحريَّة من نفاق خدمة كثرة الآلهة، والإيمان بالله الآب بالمسيح، **هي موهبة من الله**''.

وتقول المراسيم الرَّسوليَّة أيضاً في نصِّ صلاة الأُسقُف على الموعوظين (٨:٦:١٢، ١٣) ''اطَّلع الآن على عبيدك القابلين إنجيل مسيحك، وأعطهم قلباً جديداً، و**جدِّد في أحشائهم روحاً مستقيماً، ليعرفوا ويعملوا مشيئتك بكلِّ القلب، وبرضى النَّفْس. أهِّلهم للتَّعليم السِّرِّي المقدَّس، للدُّخول إلى الإيمان. ووحِّدهم في كنيستك المقدَّسة، واجعلهم شركاء أسرارك الإلهيَّة، بيسوع المسيح رجائنا، الذي مات لأجلهم**، الذي به لك المجد والتَّبجيل في الرُّوح القُدُس، إلى الآباد آمين''.

ثانياً: الإيمان بالمسيح، وارتباطه بالتَّقوى التي كمالُها المحبَّة

التَّقوى εὐσέβεια كلمة مهمَّة من كلمات كتاب العهد الجديد، وردت هي ومرادفاتها حوالي ٢٢ مرَّة. والفعل منها وهو εὐσεβέω يعني: ''يتَّقي أو يوقِّر''[2]. وأمَّا كلمة ''نفاق'' فهي: ἀσεβείας[3]

١- رومية ١:١١
٢- انظر: أعمال ١٧:٢٣ ؛ ١ تيموثاوس ٥:٤
٣- هذه الكلمة اليونانيَّة تُترجم حرفياً إلى ''عدم تقوى''.

والكلمة اليونانيَّة εὐσέβεια تعني: ''تقوى'' Piety وتعني أيضاً ''معتَقد أو إيمان'' Religion[٤]. لذلك فقد اقترنت التَّقوى بالإيمان اقتراناً شديدا، فالتَّقوى بدون الإيمان الصَّحيح لا تُفيد شيئاً، وليس هناك إيمان صحيح بدون تقوى. ولكن لم تُترجَم هذه الكلمة إلى معنى ''الإيمان'' في كتاب العهد الجديد، بل تُرجمت فقط إلى معنى ''التَّقوى''. فالتعليم الصَّحيح في الكنيسة الذي هو التَّعليم بحسب التَّقوى[٥]، يعني التَّعليم الذي بحسب الإيمان. ومعرفة الحق الذي هو بحسب التَّقوى[٦]، أي معرفة الحق الذي بحسب الإيمان. كما يوصينا الرَّسول أن نعيش بالتَّعقُّل والبر والتَّقوى[٧]، وأن نتبع البر والتَّقوى والإيمان[٨]. ولاحظ هنا أنه يُقرن التَّقوى بالبر والإيمان.

ويقول الكتاب المقدَّس: «عظيم هو سرّ التَّقوى، الله ظهر في الجسد» (١تيموثاوس ١٦:٣). وهو نفس المعنى الذي انتقل إلى النُّصوص اللِّيتورجيَّة في قول القُدَّاس الإلهي: ''ووضع لنا هذا السِّرَّ العظيم الذي للتَّقوى''. فالمقصود هنا ''بسرِّ التَّقوى'' سواء كتابياً أو ليتورجيًّا، أنه ''سرُّ الإيمان''.

ويُنهي البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) على أيَّة ازدواجيَّة في مفهوم هذه الكلمة، إذ أنَّ تعليمَ الإيمان عنده، θεολογία مرتبط أشد الارتباط بالتَّقوى، لأنه يقوم أساساً على **قداسة السِّيرة، مع إلهام وإعلان من الله.**

ففي قول مهم له يشرح فيه هذا الأمر، يقول:

[إنَّ العقيدة والتَّقوى مرتبطتَين كمثل أُختَين. فالذي يؤمن بالله يصير تقياً. وكذلك الإنسان التَّقي يكون له إيمان أقوى. لذلك فالذي يصنع الإثم يضل أيضاً بلا شك من جهة الإيمان. و**الذي يترك التَّقوى، يفقد أيضاً الإيمانَ القويم**][٩].

ويقول أيضاً:

[إنَّ تسليمَ اللاَّهوت (أي تسليم المعرفة اللاَّهوتيَّة) لا يمكن أن يكون بالبراهين الكلاميَّة، بل بالإيمان، وبأفكار التَّقوى مع الوقار][١٠].

إنَّ نقاوة النَّفْس، تؤهِّلُها لتتأمَّل الله داخلها، كما يقول الرَّب: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»][١١].

[إن ما سُلِّم بالإيمان، لا ينبغي أن يُفحص بالحكمة البشريَّة، بل أن يُقبَل بخبر الإيمان][١٢].

ثالثاً: رسالة الكنيسة هي تكميل رسالة المسيح

• لم يكن البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) يفرِّق بين المسيح وبين الكنيسة. فعلاقته بالمسيح هي نفسها علاقته بالكنيسة، ذلك لأنَّ الكنيسة هي جسد المسيح، والمسيح هو رأس الكنيسة. ولا يمكن فصل الرأس عن الجسد.

يقول البابا أثناسيوس:

[لقد وعد الرَّب قائلاً: «أنا هو خُبز الحياة. من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلن يعطش أبداً»

4- Cf. Liddell & Scott, *Greek English Lexicon*, p. 332.

٥- انظر: ١ تيموثاوس ٣:٦
٦- انظر: تيطس ١:١
٧- انظر: تيطس ١٢:٢
٨- انظر: ١ تيموثاوس ١١:٦
٩- رسالة فصحيَّة ٩:١١ *N. P. N. F.* 546
١٠- رسائل القدِّيس أثناسيوس عن الرُّوح القُدُس، ٢٠:١ *PG* 26, 577
١١- ضد الوثنيِّين ٤:٢ *N. P. N. F.* 5
١٢- رسائل القدِّيس أثناسيوس عن الرُّوح القُدُس، ١٧:١ *PG* 26, 569

(يوحنَّا ٦:٣٥). فإننا نحن أيضاً **نستحق هذه الأمور إن كنَّا في كلِّ حين نلتصق بمخلِّصنا ...**][١٣].

ويقول أيضاً:

[يا إخوتي، إنَّ هذا الخُبز (خُبز الإفخارستيَّا) لا يكون ههنا فقط طعاماً للأبرار. فليس القدِّيسون على الأرض فقط يتذوَّقون هذا الخُبز وهذا الدَّم، بل إننا سنتناولهما أيضاً في السَّماء، حيث يكون الرَّب نفسه هو طعام الأرواح العُليا والملائكة. فهو الفَرَح الحقيقي لجميع الأرواح السَّمائيَّة ... فمنذ الآن قد أعطانا الرَّب «خُبزَ الملائكة» (مزمور ٧٨:٢٥) ... فمن يُحسب أهلاً لهذا المحفل؟ ومن يسعد بأن يُدعى ويُحسب أهلاً لهذا العيد الإلهي؟ بالحق «طوبى لمن يأكل خُبزاً في ملكوت الله» (لوقا ١٤:١٥)][١٤].

• والكنيسة هي الطَّريق الوحيد للوصول إلى المسيح، وذلك بأسرارها المقدَّسة التي تنقل إلينا موت وقيامة وحياة المسيح فينا. فالكنيسة في سرّ المعموديَّة تلد في المسيح إنساناً جديداً على صورة الله في البر وقداسة الحق. والكنيسة في سرّ الإفخارستيَّا تربطنا وتوحِّدنا وتثبِّتنا في المسيح. فكيف يمكن أن نولد في المسيح ونثبت فيه بدون الكنيسة؟

• ورسالة الكنيسة هي تكميل رسالة المسيح. فقبل أن ينطلق المسيح إلى الآب، خاطب الكنيسة في شخص الرُّسُل القدِّيسين، لكي يربط الكنيسة به رباطاً لا يمكن فصل عُراه فيما بعد، فيقول للكنيسة في شخص الرُّسُل القدِّيسين:

«دُفع إليَّ كلُّ سُلطان **في السَّماء وعلى الأرض**، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، **وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به**، وها أنا معكم كلَّ الأيام إلى انقضاء الدَّهر، آمين» (متى ٢٨:١٨-٢٠).

«كما أرسلني الآب، أُرسلكم أنا» (يوحنَّا ٢٠:٢١).

«الذي يسمع منكم يسمع مني، والذي يُرذلكم يُرذلني، والذي يُرذلني يُرذل الذي أرسلني» (لوقا ١٠:١٦).

«**إنَّ لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمَّا متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق**، لأنه لا يتكلَّم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلَّم به، ويخبركم بأمور آتية. **ذاك يمجِّدُني، لأنه يأخذ ممَّا لي ويخبركم**. كلُّ ما للآب هو لي. لهذا قلتُ إنه يأخذ ممَّا لي ويخبركم» (يوحنَّا ١٦:٧، ١٢-١٥).

واضحٌ هنا أنَّ رسالة الكنيسة هي تكميل رسالة المسيح، تماماً كما أكمل المسيح رسالته التي أرسله الآب من أجلها، حتى إلى موت الصَّليب، حين قال الرَّب مخاطباً الآب: «أنا مجَّدتُك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يوحنَّا ١٧:٤). فهل يأتي يومٌ تعلن فيه الكنيسة للمسيح عن كمال إرساليَّتها، كما أعلن المسيح للآب عن كمال إرساليَّته؟ إن هذا يكون فقط، حين تمجِّد الكنيسة المسيح، والمسيح وحده، بوحدة الإيمان والمحبَّة، كما مجَّد المسيح، الآب، الذي أرسله، قائلاً له: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يوحنَّا ١٧:٢١).

• وكلُّ شيء أخضعه الآب للمسيح، هو من أجل الكنيسة. ولكي نفهم هذا الأمر، علينا أن نربط بين القولَين التَّاليَين للقدِّيس بولس الرَّسول، فيقول:

«إذ عرَّفنا بسرِّ مشيئته حسب مسرَّته التي قصدها في نفسه، لتدبير ملء الأزمنة، **ليجمع كلَّ شيء في المسيح، ما في السَّموات وما على الأرض** في ذاك» (أفسس ١:٩، ١٠).

«أجلسه عن يمينه في السماويَّات، فوق كلِّ رئاسة وسلطان وقوَّة وسيادة وكلِّ اسم ... وأخضع كلَّ شيء تحت قدميه، وإيَّاه جعل رأساً فوق كلِّ شيء، **للكنيسة**» (أفسس ١:٢٠-٢٢).

١٣- رسالة فصحيَّة ٩:١٠ *N.P.N.F.* 257

١٤- رسالة فصحيَّة ٩:٨ *N. P. N. F.* 526

ومن هنا نُدرك أنَّ جمْع كلِّ شيء ما في السَّموات وما على الأرض في المسيح، هو من أجل الكنيسة، وهو أيضاً العمل المنوط بالكنيسة أن تكمِّله لحساب المسيح، باعتبارها جسده، وأنه هو الذي يدبِّرها ويقودها لتكميل مقاصد الله في ذلك. فكلُّ ما تعمله الكنيسة الآن، تعمله في المسيح، وبه، لأنها جسدُه، وهو رأسُها.

• وعمل الكنيسة لا يشمل الأرض فقط، بل يمتد ليشمل السَّماء أيضاً. وهو ما يتَّضح من كلام القدِّيس بولس الرَّسول في رسالته إلى أهل أفسس. فيقول: «وأُنيرُ الجميع في ما هو شركة السِّر المكتوم منذ الدُّهور في الله (الآب) خالق الجميع بيسوع المسيح، لكي يُعرَّف (هذا السِّر) الآن عند الرؤساء والسَّلاطين في السَّماويَّات، **بواسطة الكنيسة**، بحكمة الله المتنوِّعة، حسب قصد الدُّهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربِّنا» (أفسس ٣:٩-١١).

تعبير «أُنير الجميع» يعني أنَّ القدِّيس بولس قد حاز الاستنارة التي تؤهِّله لمعرفة سرّ المسيح والكنيسة، فأصبح عليه مسؤوليَّة أن يُنير الجميع، ليعرفوا هذا السِّر، لكي تصير للجميع شركة في هذا السِّر الذي كان مخفياً في الله، ثمَّ أعلنه لنا في المسيح.

فواضحٌ هنا – وبحسب قول الرِّسالة إلى أفسس – أنَّ للكنيسة دوراً هاماً وسرياً، لدى السَّمائيِّين أيضاً كالأرضيِّين تماماً، للتَّعريف بقصد الله الذي كان منذ الدُّهور، الذي عَرِفنا (نحن) أنه جَمَعَ كلَّ شيء في المسيح ما في السَّموات وما على الأرض. وهكذا صار قصد الله، أن تُصبح الكنيسة هي التَّعبير الكُلي والكامل للمسيح، والملء الذي له كلُّ ملء المسيح.

وتقول صلاة شُكر بعد التَّناول في القُدَّاس الكيرلُّسي: ''أنعمت لنا بالحريَّة، وأعطيتنا من هذا الطَّعام غير المائت السَّمائي، **وأظهرت لنا كلَّ هذا السِّر المخفي منذ الدُّهور والأجيال، لكي تظهر الآن حكمتك المتنوِّعة، للرؤساء والسَّلاطين في السَّماويَّات، من قِبَل الكنيسة**''.

• وأمَّا بلوغ الكنيسة إلى ملء قامة المسيح، فيكون بوحدانيَّة الإيمان والمحبَّة. فالمسيح بلغ بالكنيسة إلى ملء الكمال، أي كمال الكمال، يوم أن قام بالجسد من بين الأموات، وارتفع بجسده إلى أعلى السَّموات، لكي يُحضر الكنيسة فيه أمام الآب – أي في جسده المقام في ملء المجد – كنيسةً مجيدة، لا عيب فيها ولا غَضَن (غَضَن أي تجعُّد علامة الشَّيخوخة). يقول القدِّيس بولس الرَّسول في ذلك: «صعد أيضاً فوق جميع السَّموات، لكي يملأ الكُل ... لأجل تكميل القدِّيسين، لعمل الخدمة، لبُنيان جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعنا إلى **وحدانيَّة الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل إلى قياس قامة ملء المسيح**» (أفسس ٤:١٠-١٣).

يقول القدِّيس بولس الرَّسول:

• «إلى أن ننتهي جميعاً إلى **وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله**، إلى إنسان كامل، **إلى قياس قامة ملء المسيح**» (أفسس ٤:١٠-١٣).

• «**صادقين في المحبَّة، ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح**» (أفسس ٤:١٥).

وهكذا إذا اجتمعت كلُّ كنائس العالم معاً، وعلى مدى العُصور، فهي تُحسب جسداً للمسيح، **ولكنَّها لا تُحسب أنها ملء قامة المسيح إلاَّ إذا بلغت وحدانيَّة الإيمان والمحبَّة**.

والقدِّيس بولس الرَّسول، حين يقول: «لأنه من عَرَفَ فكرَ الرَّب فيُعلِّمَه، وأمَّا نحن فلنا فكرُ المسيح» (١كورنثوس ٢:١١- ١٦)، فهو يعني أنه إن كان المسيح هو رأس الكنيسة، والكنيسة هي جسده، **فإنَّ فكر المسيح يلزم أن يكون هو نفسه إرادة الكنيسة**. وفكرُ المسيح هو أن تعترف كلُّ الخليقة به رباً، لكي يتمجَّد الله الآب به. هذا هو منتهى فكر المسيح الذي يلزم أن يكون هو إرادة الكنيسة.